

المتابعات النقدية

الأمير عبد القادر بين المحققين والنقاد

د. عبد الكريم بوصفصاف *

صادف التحضير لإصدار العدد الأول من مجلة "الحوار الفكري" أن وصلني كتاب من قبل الأستاذة "الأميرة بديعة الحسني الجزائري" بعنوان: "فكر الأمير عبد القادر الجزائري حقائق ووثائق" صادر عن دار الفكر للطباعة والنشر بدمشق سنة 2000.

ومع كل هذه الموضوعية العلمية، فإنها لم تستطع أن تتخلص كلية من الميول الوطنية والعاطفة القومية والنسب الشريف. وبالرغم من أن الكاتبة لم تولد في الجزائر ولا نشأت فيها، فإنها ظلت وفيه لها تحمل في ذهنها الذكريات الخالدة لجدها البطل وهو يصول ويجول في هذه الربوع الشاسعة بجواده الأصيل وسيفه البتار منافحاً عن دينه ووطنه بما أوتي من قوة وشجاعة وحمية.

ولدت الأميرة "بديعة" حفيدة "الأمير عبد القادر الجزائري" في تطوان بالمغرب الأقصى في مطلع الثلاثينات من القرن العشرين ونشأت في دمشق ودرست بمعهد دوحة الأدب الذي أسسته السيدة عديلة، إحدى حفيدات الأمير عبد القادر، وفي دار اللغات المرخصة من جامعة كمبريدج الإنجليزية.

تطوعت في المقاومة الشعبية أثناء العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956 م، وكانت قائدة لوحدة فدائية.

وهو في طبعة أنيقة وعناوين جذابة يغري القارئ بتتبع موضوعاته الشيقة وأرائه الجادة في الفصل بين الحقيقة والخيال في تاريخ الأمير عبد القادر، فآثرت أن يكون موضوع مقالتي في أول عدد من مجلة المخبر "الحوار الفكري" دراسة هذا المصنف وتحليله ومناقشته والتعليق عليه، فقرأته قراءة موضوعية متأنية، لكي لا أقع تحت تأثير العاطفة الوطنية أو الميول الذاتية، خاصة وأنا أعرف المؤلفة معرفة شخصية وأكن لها كل الاحترام والتقدير لغيرتها الوطنية وعاطفتها القومية ورجاحتها العقلية.

وقد أدركت من خلال قراءتي لهذا المصنف، أن الكاتبة كانت تحاول باستمرار الابتعاد عن توظيف العاطفة الأسرية والوشائج العائلية، وتبحث عن الدليل فتلمسه حيث وجدته واضعة نصب عينيها: "الحكمة ضالة المؤمن يتلمسها حيث وجدها".

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة

أولاً: مقدمة طويلة تحتوي على تسعة عناوين هي:

- قراءة في فكر الأمير عبد القادر.
- دولة الأدراسة وأسباب ترحيب القبائل بها.
- فروع هذه الشجرة المباركة.
- دولة الأمير عبد القادر.
- بناء الحصون ومصانع الأسلحة.
- تأثير الطبيعة والبيئة الأسرية على نضوج عبقرية الأمير العسكرية والأدبية.
- تدمير مكتبة الأمير ونهاية دولته وقصة اختطافه.
- سلوكيات الأمير عبد القادر.
- فكر الأمير عبد القادر.

ثانياً: تحقيق رسالتين من تأليف الأمير وهما:

- وشائج الكتاب وزينة الجند المحمدي الغالب "والمقراض الحاد لقطع لسان منتقدي الإسلام بالباطل والإلحاد".
- ويقع الكتاب في ثلاثمائة وأربع وسبعين (374) صفحة.
- تناولت في المقدمة الأصول الشريفة لعائلة جدّها "الأمير عبد القادر" وهي تنتمي حسب الحققة إلى الإمام "علي بن أبي طالب" كرم الله وجهه، والسيدة "فاطمة الزهراء" ابنة الرسول محمد ﷺ.

وقد أوردت الحققة سلسلة العائلة من البداية حتى الشيخ "محي الدين" والد الأمير عبد القادر

حضرت مؤتمرات دولية عديدة، وكتبت مقالات كثيرة صححت فيها أخطاء تاريخية في مجلات وصحف محلية وعربية، وهي تهتم بالتاريخ العربي المشترك خاصة بين الجزائر وسوريا وتحمل الهويتين الجزائرية والسورية معاً.

ولم يكن حديثها معنا أثناء زيارتنا لها في دمشق، يخرج عن الوطن الجزائري وأمجاد ومستقبل أبنائه وعن الوطن السوري واحتضانه لعائلة جدّها بطل المقاومة الوطنية في شمال إفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

وهي تهوى الكتابة التاريخية والأدبية وتناطح كبار الكتاب والمؤرخين نقداً وتحقيقاً وتعليقاً.

سخرت قلمها السيل لرد الشبهات التي علقت بتاريخ مؤسس أول دولة جزائرية وطنية في العصر الحديث، من قبل أتباع المدرسة الكولونيالية في الجزائر وهي ما تزال حتى الآن (2001) تبحث بين صفحات التاريخ وفي أوعية الماضي عامة عن الحقائق والشواهد التاريخية الدامغة لإسكات أولئك الذين أصيبوا بالآلية الفكرية النابعة من مخلفات جيل المؤرخين الاستعماريين، لأنهم لا يشعرون بأنهم يرددون آراء ونظريات تجاوزها الزمن ولم تعد تضيف شيئاً للبنية الثقافية الجزائرية وإنما هي مجرد تشويش لأفكار الشباب وتعتيم نظرتهم نحو ماضي أبائهم وأجدادهم من أمثال: رشيد بوجدره وجرجي زيدان وجورج راسي، وزوميروف، وجورجيت عطية، وغيرهم.

يتألف الكتاب الذي نحن بصدد دراسته من:

أعماقه شعور بضرورة التمسك بهذه الأرض والتمتع بجمالها والاستفادة من مكوناتها.

ثم عرضت سيرته الدراسية والعلمية والمدارس التي تنقل بين معلميه وأساتذتها لطلب العلم والمعرفة من معسكر إلى وهران إلى الزيتونة بتونس إلى القرويين بفاس.

أما الموضوع السادس: فقد تحدثت فيه المؤلفة عن أوصاف الأمير عبد القادر الخلقية نقلا عن "سوشيه" «Sauchier»، الذي قال عنه: «كانت بشرته بيضاء أكسبتها شمس المعارك اللون البرونزي، لحيته كثيفة سوداء، وفي عينه بريق الذكاء والقوة، فكنت كمن يقف أمام قديس، وفهمت منه أن حربه إسلامية ضد كفار معتدين لا يحترمون التعاليم المسيحية...»⁽¹⁾.

وكان الأمير يطلب من أعضاء حكومته أن يتقيدوا بالعدل وخدمة الوطن والإخلاص له. وأوردت المحققة جملة من شهادات الأسرى الفرنسيين وكيف كانت تحترم إنسانيتهم ورتبهم العسكرية.

أما بخصوص الرسائلتين المعنيتين بالدراسة في هذا الكتاب فهما: "وشائح الكتائب وزينة الجند المحمدي الغالب" و"المقراض الحاد لقطع لسان منتقد دين الإسلام بالباطل والإلحاد".

أولا: وشائح الكتائب: وهو أول مؤلف وضعه الأمير عبد القادر في حياته كرجل دولة وقائد مقاومة.

وهو عبارة عن ملخص للقوانين العسكرية التي سنّها الأمير سنة 1249هـ/1833م. ويتألف من مقدمة وأربعة وعشرين قانونا قسم فيه الجيش إلى ثلاث فرق: الخيالة (الفرسان)، المشاة والرملة.

القادر في القرن 19 م، مرورا بعشرين جدا منذ إدريس الأصغر وتأسيس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى سنة 172 هـ، وكان العامل الأهم في مبايعة الإمام إدريس ومساندته ومناصرته أنه من آل بيت رسول الله ﷺ. وقد استغربت الكاتبة من بعض المؤرخين الذين يتجاهلون دولة الأدارسة في سياق حديثهم عن دول المغرب العربي.

أما بخصوص دولة "الأمير عبد القادر" فقد تحدثت المؤلفة عن الطريقة التي تمت بها مبايعة هذا البطل أميرا على الجزائريين بعد أن رفض والده الشيخ "محي الدين" قيادة الجماهير المطالبة بتوليّه زمام المقاومة، لأنه كان طاعنا في السنّ وأكدت على شرعية وصول "عبد القادر" إلى منصب الإمارة وتكوين الدولة لأنه تم عن طريق المبايعة أو الانتخاب من قبل العلماء والأعيان ورؤساء القبائل والعشائر في منطقة الغرب الجزائري.

وفي الموضوع الرابع من المقدمة سلطت الكاتبة الضوء على منجزات دولة الأمير في بناء القلاع والحصون وإنشاء مصانع الأسلحة والذخيرة ومعمل لصك عملة الدولة من الفضة والنحاس، واعتبرت هذه المنشآت المذكورة الأركان الأساسية في دولة الأمير.

أما الموضوع الخامس من المقدمة دائما فقد ركزت فيه المؤلفة على تأثير البيئة الطبيعية والأسرية على فكر الأمير عبد القادر وحياته السياسية والعسكرية لاسيما جمال الطبيعة في الغرب الجزائري، من حقول خضراء وأشجار باسقة وبناييع دافقة وأطيّار مغردة، مما زرع في

الذهب والفضة والجوخ، ذكر عددا من القادة الرواد وهم: القائد "قدور بن بحر" و"عبد القادر بن عز الدين" و"محمد قوشارمة" و"محمد السنوسي" و"سالم الزنجي" و"أحمد الفديوي" و"ابن الكورغولي".

وخصص مكافآت للأعمال البطولية التي يقوم بها بعض الضباط أو الجنود ضد العدو الفرنسي.

والخلاصة أن هذا الكتاب كان عبارة عن دستور شرع فيه الأمير لدولته الناشئة النظم العسكرية والاجتماعية والاقتصادية وما يتعلق بالرتب والرواتب والأوسمة والمكافآت والعقوبات والمستشفيات وتغذية الجيوش وكسوتها ومختلف أساليب التدريبات العسكرية، ونحو ذلك من المستلزمات الضرورية للدولة والمقاومة.

وقد أضفت المحققة على هذه الرسالة صورة جذابة تشوق القارئ إلى الإطلاع على مؤلفها هذا، فيسترسل في قراءته بما أضافته من معلومات وتعليق قيمة حول كفاح الأمير وموقف شخصيات وشعوب أخرى من مقاومة هذا الرجل لأكبر دولة استعمارية برية في ذلك الوقت.

ومن المعلومات الطريفة التي أوردتها في هذا السياق المدينة الأمريكية "كادر" التي سميت باسم "الأمير عبد القادر الجزائري" سنة 1887 م، والوفد البولوني الذي شد الرحال، بأمر من وزارة الدفاع في بلاده إلى باريس سنة 1851 م للإستفادة من خبرة وتجارب الأمير عبد القادر العسكرية، والذي لم يلتق به إلا بعد أن توجه إلى "بورصة" بعد إطلاق سراحه سنة 1852 م،

حدد في القانون الأول الرواتب الشهرية حسب الرتب العسكرية، أما في القانون الثاني فقد وضع ضوابط وكيفيات معينة لتوزيع الملابس وتحديد ألوانها حسب الرتب العسكرية أيضا.

وأُسند مهمة تنظيم صرف الرواتب والإشراف على إقامة العبادات وما تحتاج إليه من مياه للوضوء والطهارة وأمكنة الصلاة، إلى ضابط برتبة باش كاتب.

وعين إماما برتبة "باش كاتب" أيضا ليؤذن في الناس وقت الصلاة ويقوم بالإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الجهلة من الضباط والجند أمر دينهم.

أما القوانين الأخرى فقد نصت على إنشاء مشاف متنقلة وتعيين أطباء وتحديد رواتبهم وما يحتاجون إليه من طعام وشراب وملابس وأسيرة وخدمات عامة وممرضين وأدوية، واختيار الأطباء والممرضين من ذوي الخبرة وطلاقة الحيا والتخلي بالأخلاق الإسلامية الحميدة والسلوكات الرفيعة وتخصيص ميزانية من بيت المال لهذه الأمور. ووضع قوانين أخرى لتحديد مدة زمنية ترقية الجنود والموظفين ونص في بعض هذه القوانين على تحديد الجزاءات والعقوبات حسب طبيعة الأخطاء والفضائل، وعين قضاة عسكريين للجيش ومحاكم ميدانية، وفرق موسيقية تعزف في المناسبات ألباناً عسكرية أندلسية.

أما الخاتمة فقد خصصها لتحديد الرتب العسكرية والأوسمة وألوان الألبسة لكل فرقة وكتيبة... إلخ.

وبعد أن صنف الأوسمة العسكرية التي كانت تحمل آيات قرآنية وأحاديث نبوية وعبارات تحميسية وتفاؤلية وهي مصنوعة من

وقد تساءلت الكاتبة في ما معناه هل يمكن أن نعتبر من يردد أدعية شيخ من الشيوخ أو عالم من العلماء أنه ينتمي إلى طريقته بالضرورة فكريا ومذهبيا؟.

ومع الفرض أن الشيخ "محي الدين" قد تأثر فعلا بالشيخ "عبد القادر الجيلاني"، فإن ذلك لا يجعل منه قادريا في ظرف خمس سنوات فقط (1825 - 1830) م، وهي الفترة الفاصلة بين الزيارة ووقوع الجزائر في قبضة المستعمر الفرنسي.

أما الأمر الذي تؤكد عليه الكاتبة حقا هو أن الشيخ "محي الدين" كان رجلا مهابا محترما، ليس لكونه قادريا كما تردده أعلام الدعاية، وإنما لكونه عالما فقيها وحكيما شجاعا، إمتاز بالسلوكيات الإسلامية وعلو المنزلة العلمية وهيبة قبيلته "بني هاشم" العربية التي يمتد نسبها إلى الأدارسة، ومن ثمة إلى بيت النبوة.

والحق أن هذا الاحترام والتقدير العربيين لم يكونا صادريين عن القبيلة فحسب بل فقد كان الشيخ محي الدين يحظى بمكانة رفيعة لدى السلاطين العثمانيين أيضا ولم يكن مرهوب الجانب لطريقته الصوفية وإنما لمكانته العلمية والاجتماعية الأسرية ذات المجد التليد، فمن الطبيعي ظهور هذه الآثار الوراثية الشريفة على أبنائه ومنهم "الأمير عبد القادر"، الذي برزت فيه هذه الخصال، وفي وقت مبكر من شبابه مثل: الذكاء والفتنة وسرعة البديهة والشجاعة والمهارة في فنون الفروسية من ركوب الخيل والسباحة واستعمال السيف، وهذا ما لا يتوفر عادة لدى شيوخ الطرق الصوفية.

وقد اعتمدت المحققة في هذا الموضوع على مصادر ومراجع تاريخية ذات قيمة علمية معتبرة. غير أن المحققة لم تذكر حجم وعدد صفحات كتاب "وشائح الكتائب"، وما إذا كان الأمير قد إعتد في تأليفه على مرجعية عسكرية عربية أو أجنبية أو أنه من بناء أفكاره وتجاربه الخاصة، ولم يخرج في مرجعيته عن القرآن الكريم والسنة الشريفة والتراث العربي الإسلامي. وقبل أن تنتقل الكاتبة إلى عرض وتحقيق رسالة "المقراض الحاد" وقفت وقفة طريفة مع جملة من الأفكار والتحليل التاريخية حول التكوين العلمي والثقافي للأمير وحقيقة الطريقة القادرية التي ينتمي إليها والده الشيخ "محي الدين".

وقد نفت على الأمير وعائلته أن يكونوا متصوفين طريقين واعتبرت ذلك من نحت الكتاب، لأن الأمير نفسه قد قاوم الطرق الصوفية بعد تكوين دولته، لاسيما الطرق المتعاونة مع الاستعمار مثل: "الطريقة التيجانية" وألحق بهم هزائم نكراء وهذه مسألة على غاية من الأهمية لأنها تزعم الفكر التصوفي المتراكم والمتوارث في الجزائر والذي تعبته الكاتبة نتيجة من نتائج الاستعمار وتؤكد أن تسمية طريقة الشيخ "محي الدين" "بالقادرية" لم تكن امتدادا مذهبيا للشيخ عبد القادر الجيلاني في العراق، وإنما كان أمرا مستحدثا وقع خلال زيارة الشيخ "محي الدين" وابنه "عبد القادر" إلى المشرق ووقوفهما على ضريح سيدي "عبد القادر الجيلاني" سنة 1825 م، ولم يكن معروفا قبل ذلك التاريخ لدى عائلة الشيخ محي الدين طريقة باسم "القادرية".

عصره ومحيط بيئته وبعض مصادر فكره، وكان الأجدر بها أن تبرز للقراء زبدة أفكاره وثمار آرائه في مختلف حقول المعرفة التي اهتم بها وألف فيها.

ومع هذا فإن المحققة أثارت أطروحات جديدة تهدف إلى تغيير المفاهيم التي توارثها الناس عن الحقبة الاستعمارية وتسعى إلى توجيه الفكر الجزائري توجيهها وطنيا مستقلا عن الآثار الفكرية المعادية.

ولم يكن عملها هذا عملا حماسيا عاطفيا ناتجا عن صلة القرابة للأمير عبد القادر، وإنما هو عمل علمي وليد مدرستين عريقتين في الوطنية والثورة ضد المستعمر المشترك ألا وهما: المدرسة الجزائرية والمدرسة السورية، لأن الأميرة بديعة معروفة من خلال سيرتها الذاتية أنها من أبرز البطولات المقاومات في الثورة العربية كما سلف الذكر. ومن الأقلام البارزة في الثقافة القومية المعاصرة.

□ **الأمير ومسألة وقف الحرب مع الفرنسيين:** ومن القضايا المثيرة للجدل في هذا الكتاب أيضا والتي ركزت عليها المحققة هي قضية الأمير ومسألة وقف الحرب مع الفرنسيين في خريف سنة 1847. فهل هو استسلام ورضوخ لمطالب العدو وخيانة للقضية الوطنية كما تشيع ذلك أقلام الدعاية المغرضة في الجزائر وفرنسا على حد سواء؟ أم هو قرار بالهجرة ووقف لسفك الدماء وتجنب الإنسانية في الغرب الجزائري كارثة استعمارية تؤدي إلى ارهاق أرواح المئات من المسلمين، رجالا ونساء وأطفالا؟

والشاهد أن ما يؤيد رأي الكاتبة في نفي صفة الطريقة البدعية عن الأمير عبد القادر هو مقاومته للبدع والخرافات التي كانت تنشرها بعض الطرق الصوفية. وتحقيقنا في هذا الموضوع قد أفضى إلى النتائج الآتية:

أولا: لم يكن معروفا قبل الاحتلال الفرنسي طريقة باسم القادرية في الجزائر، وإنما كانت أربع جمعيات تنتمي إلى المدرسة القادرية وهي: الجمعية الرافعية والجمعية العامرية والحمدوية والعيساوية.

ثانيا: أن الأمير عبد القادر عندما زار ضريح مؤسس الطريقة القادرية، الشيخ عبد القادر الجيلاني سنة 1825 م بالعراق. أخذ الاجازة من نقيب الأشراف وخادم القادرية(2).

ومعنى ذلك أن عائلة الأمير لم تكن مرتبطة بنظام الطرق الصوفية قبل زيارة الأمير عبد القادر مع والده إلى المشرق سنة 1825 م. ومن هنا فإن ما ذهبت إليه المحققة في نفي الطريقة عن العائلة لم يكن محض ادعاء، وإنما كان حقيقة تاريخية واضحة.

حقا أن الكاتبة قد نجحت في تقديم الأدلة الدامغة والبراهين القاطعة في إبراز مواقف الأمير وفكره الناقد المتطور في ذلك الوقت وفي رد الشبهات ودحض الاتهامات التي دبرتها أقلام الدعاية، ولكنها لم تستند في كل هذه المواقف على المرجعية التاريخية التي تقوي رأيها وتدعم أفكارها وأدلتها العلمية.

كما أنها لم تلتزم في مضمون هذا المبحث بما جاء في العنوان "فكر الأمير عبد القادر" فبدلا من أن نتحدثنا عن أفكاره العلمية والدينية والسياسية والوطنية والأدبية، ركزت على قضايا

في برنسي هذا وفرشتموها بالدبياج لقفزتها إلى أمواج هذا المحيط ولن أقبل بديلا عن الاتفاق»⁽³⁾.

أما سبب نقض العهد وتحويل السفينة إلى باريس فقد كان منسجما مع ما تقتضيه السياسة الفرنسية الاستعمارية وهو تطوير علاقات استثنائية خاصة بينهم وبين خصمهم العنيد بأسلوب المنفعة المتبادلة، ولكن هذا البطل الشجاع اعتبر ذلك خيانة لدينه ووطنه فرفض تحقيق أهدافهم الاستعمارية من خلال شخصيته فأصبح الشيء الممكن عندهم هو سجنه أو قتله، ولكنهم أدركوا على الفور أن قتله سيقضي على كل بادرة أمل في استغلال شخصيته مستقبلا، وهذا الاستغلال كان يتطلب بناء أسس قوية، فكان الأساس التقرب منه بسجنه في أحد قصور ملوك فرنسا وليس في سجن من سجونها العادية. وفتح مجال فكري أمام الأمير كمجرد أداة طيعة يمكنهم تحريفها وتوظيفها في الجزائر لدعم سياستهم الاستعمارية والتأثير بها على نفوس أبناء وطنه سلبيا، متى شاءوا ذلك.

والحق أن سجن الأمير لمدة خمس سنوات كاملة في قصر أمبواز بفرنسا لم يكن مضیعة للوقت أو وقفا لقدرات الرجل عن المساهمة في الحياة الإنسانية وبناء الحضارة الحديثة، وإنما كان فرصة فذة استغلها في توظيف قلمه استعمال فكره في الدفاع عن الإسلام وعن العقل العربي. وما أبدعه في قصر أمبواز "رسالة المقرض الحاد" التي كان لتأليفها عامل الرغبة في توضيح موقف الإسلام من العلاقات الإنسانية.

«في مساء يوم حزين بينما كان أصحابه يشعلون القناديل في ردهات ذلك القصر الكبير الموحش الذي لم يكن شيئا يؤنس من وحشيته

نعم لقد اعتبرت الكاتبة قرار الأمير بوقف الحرب قرارا حكيما وعملا إنسانيا حليما بعد أن لحت إلى الأسباب الموضوعية التي جعلته يقدم على هذا القرار الشرعي، وقد تجنبت الكاتبة الخوض في موقف سلطان المغرب من البطل الجزائري، وهو موقف سلبي في الواقع، اعتبرته حقا شرعيا من قبل ملك المغرب في الدفاع عن وطنه وحفظ دماء مواطنيه من الزحف الفرنسي على بلاده إذا هو فتح الحدود أمام الأمير، بل فإن المحققة قد أكدت على أن الأمير لو لم يفعل ما فعله لكان مسؤولا أمام الله وأمام الأمة مسؤولية يحاسب عليها، لأنه كان سيغرق أتباعه في بحر من النار والدماء.

وعندما قبلت فرنسا بشروطه الثلاثة^(*)، وأبرمت معه اتفاقية رسمية "بالاستئمان" الزمني حتى وصوله إلى عكا أو الاسكندرية كان ذلك عملا سياسيا لا عسكريا، ورغم وجود هذه الاتفاقية التي تعهدت فيها فرنسا بأن تسمح له بالهجرة إلى المشرق العربي، فإنها أخلفت وعودها واختطفته من الباخرة وأخذته أسيرا، ولم يحمل معه إلى دار هجرته سوى بعض الكتب التي نجت من الحصون المدمرة والمال الذي يلزمه للسفر.

ولقد استشهدت المحققة على سلامة قرار الأمير وشرعيته بوقف الحرب والهجرة برفضه العرض المغربي الذي تقدمت به إليه فرنسا وهو: أن تهب الحكومة للأمير أراض واسعة وقصورا فخمة ليعيش فيها هو ومن معه بدلا من الاتفاق الموقع بينهما.

وقد أجاب الأمير عن هذا العرض بتلك الكلمات الشهيرة قائلا: «لو وضعتم فرنسا كلها

الواسعة وعقله المستنير وتجاربه الناضجة كعالم ديني واجتماعي وسياسي وعسكري.

بعد هذا الاستطراد نستخلص مما سبق عرضه وتحليله أن وقف الحرب بين البطل الجزائري والملك "لويس فيليب" (1830 - 1848م) كانت ضرورة حتمية فرضتها فلسفة السلم التي لم يكن له بديلا عنها، وأن اجتهادات المحققين لم تكن من نسج الخيال والعاطفة وإنما هو واقع لم ينقص من قيمة الأمير كقائد للمقاومة ومؤسس لأول دولة وطنية حديثة، وعلى المؤرخ المحقق أن يدرك أن ظروف الحرب والسلم تختلف في كل زمان ومكان وليس لها قواعد ثابتة ومتشابهة عبر الأزمان.

أخلاقيات الأمير في الحرب

لقد ضمنت المحققة كتابها علاوة على المواقف السياسية والعسكرية والمذهبية والفكرية، المواقف الأخلاقية التي تميز بها الأمير وقومه من عسكريين ومدنيين، لاسيما في معاملة أسرى الحرب من الفرنسيين.

فبينما كان قادة الاحتلال يأمرون جنودهم بإطلاق النار على كل من يقع تحت النظر وينهبون السكان المسلمين نهبا جشعا، أموالهم ومواشيهم على اختلاف أصنافها، ويسلبون النساء حليهن ويقطعون شحمة أذان الفتيات مع تلك الأقراط الفضية والذهبية المثبتة فيها. ويكافئون جنودهم على ما يأتون به من رؤوس وأذان البشرية أمثال: الجنرال "بيجو" و"سانت أرنو" وغيرهما، كان الأمير يصدر الأوامر اليومية لجنوده للرفق بالأسرى ومعاملتهم معاملة حسنة تتناسب مع إنسانيتهم ورتبهم العسكرية بل أن

سوى صوت المؤذن الذي يرفع خمس مرات في اليوم...»، تقدم إلى الأمير أحد أصحابه يخبره أن ضابطا يرغب في رؤيته وهو من الذين كلفوا بإدارة قصر أمبواز نفسه وقال له: «أنه سمع من أحد القسيسين أن الغدر وعدم الوفاء غير قبيحين في الشرع الإسلامي، وأنه يريد توضيحا من الأمير على هذا الموضوع»⁽⁴⁾.

وعلى الفور شرع الأمير في كتابة رسالة علمية قيمة، وأرسلها إلى علماء باريس والقسيسين اختار لها عنوانا يصعب تحريفه أو تبديله وهو: "المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد".

وقد قال في مقدمة هذا المصنف: «عندما طلب مني شرح معتقداتي الإسلامية، أحببتهم بأنني لا أصلح تلميذا لعلماء المسلمين، فضلا أن أكون من جملتهم، ولكنني سأبذل الجهد، وأذكر كلام الله سبحانه وتعالى، وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام التابعين والخلفاء الراشدين لأنها أمور مرتب بعضها على بعض».

وقد ترجمت هذه الرسالة إلى اللغة الفرنسية ولم يتمكن ذروا الرأي والمعرفة من تجاهلها بعد مناقشتها من قبل رجال الفكر في فرنسا.

وبناء على هذا العمل الفكري أدرجت جمعية العلماء في باريس اسم الأمير عبد القادر بين أسماء علماء العالم وعظمائه في "ديوان الأمم"⁽⁵⁾.

وهكذا استطاع الأمير أن يجيب عن السؤال المخرج الذي طرح عليه من قبل أحد مسؤولي قصر أمبواز، بأسلوب علمي مبسط، شرح فيه النظرية الإلهية لدستور حياة الإنسان على أديم هذه البسيطة في مختلف سلوكاته اليومية وعلاقاته الاجتماعية معتمدا في ذلك على ثقافته

دين الإسلام بالباطل والإلحاد" التي سبق وأن أشرنا إلى سبب تأليفها. وتتكون هذه الرسالة من مقدمة وثلاثة أبواب وستة فصول.

تناولت المقدمة العقل وما يتصل به. وتضمن الباب الأول إثبات الألوهية والنظر في خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وعالج الباب الثاني إثبات النبوة وحاجة الإنسان إلى الرسل ومعرفة تاريخهم.

أما الباب الثالث فقد خصصه المؤلف للأخلاق الإسلامية منذ عهد آدم عليه السلام من رحمة وعدل وحياء وعفة، وتسامح وتعاون وتواضع وحياء وحفظ للأمانة وحسن الظن، والسخاء والسماحة والعفو والصنع عن المذنب وعلو الهمة وقبول الحق، وترك حب الرئاسة وتجنب إثارة الفتن والتقيد بمكارم الأخلاق التي تمت بنزول القرآن الكريم على سيدنا محمد ﷺ «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

لقد وضع صاحب المقراض مقدمة لرسالته ركز فيها على تعريف العقل وجعله ينبوع العلم والمعرفة يجري منه مجرى الثمر من الشجر، والنور من الشمس، والرؤية من العين واعتبره سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة. وربط في كمال الأشياء بين العقل والفرس وهو مثال حي استنبطه من ممارسته اليومية للفرسية مما يجعلنا نعتقد أن ثقافة الأمير تعتمد أساسا على الجانب العملي لأن أمثلته في الغالب لا تؤخذ إلا من الواقع المعيش الذي مارسه بنفسه فيقول: «الإنسان اختص بالعقل، وكمال كل شيء يكون بما اختص به، مثل الفرس وامتيازها بالعدو، فإذا لم تكن صلبة القوائم، متناسقة في

والدة الأمير نفسها كانت تأمر بوضع الأسيرات الفرنسيات في خيم تنصب لهن بجوار خيمتها لتشرف على رعايتهن بنفسها فكانت مثلا: تأمر بتقديم الافطار والقهوة لهن كل صباح وتوفير كل ما يحتاجن له.

ويتفق جل المؤرخين على أن الأمير عبد القادر كان يمتاز بالفروسية والإباء والإنسانية، ومن ثمة فقد منع تحت طائلة العقوبة قطع الرؤوس والآذان البشرية ومنع إلحاق الأذى بالأسرى وهو في ذلك يتقيد بشكل دقيق بقوانين الحرب في الإسلام، فكان على سبيل المثال: يكافئ كل مجاهد يأتيه بجندي فرنسي في حالة حسنة، وإذا اشتكى هذا الأسير من سوء المعاملة حرم المقاتل الجزائري من أية مكافأة وسلطت عليه العقوبة⁽⁶⁾.

أما نحن فإذا كنا لا نستغرب من الأعمال الوحشية والجرائم اليومية التي يرتكبها قادة الاحتلال الفرنسي لأنهم استعماريون يضحون بكل المبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية التي جاءت بها الثورة الفرنسية نفسها، من أجل أطماعهم الاستعمارية فإننا نتعجب غاية التعجب من مقاوم وطني يدافع عن أهله وبلاده بأسلحة بسيطة وقوات ضئيلة ضد أكبر قوة برية في العالم آنذاك، أن يكون متسامحا مع عدوه إذا أصبح في قبضته ومقيدا بأخلاقيات الحرب التي تنظمها قواعد القانون الدولي وتقاليد الحروب الحديثة.

رسالة المقراض الحاد:

ولما فرغت الكاتبة من الحديث عما وسمته "التناج الفكري للأمير وثقافته" انتقلت إلى عرض وتحقيق رسالة "المقراض الحاد لقطع لسان منتقص

ترابطها وتناسقها العضوي وهذا التوازن والترابط لا يوجد كما يقول الأمير في جسم الإنسان فحسب وإنما يوجد في الكواكب والهواء والحيوان والنبات ومختلف الأجسام الأخرى ويضرب مثلا عن تفاوت العقول (8): «أن عقول الأنبياء ليست كعقول سائر البشر»، وعقل ابن سينا مثلا: فاق كثيرا من العقول في عصره.

وتختتم الكاتبة تحقيقها لكتابي الأمير: "وشائح الكتاب" و"المقراض الحاد" بالقاء اللوم على الكتاب والباحثين العرب الذين يجارون علماء الغرب ومؤرخيه في طعن الشخصيات الإسلامية والخط من رقي الحضارة العربية والتشكيك في قدرات المسلمين على الخلق والإبداع الفكري.

وتوجه نقدا مباشرا إلى عدد من المؤرخين العرب البارزين أمثال: الدكتور محمود إسماعيل عن كتابه "الأداسة" والدكتور "عبد الجليل التميمي" عن كتابه حول حياة الأمير عبد القادر في دمشق وجورج راسي «GEORGE RASSIE» وجورجيت عطية وزوميروف «ZOMIROF» وبرونو «BERNO» وهنري تشرشل «HENRI CHURCHILL» وغيرهم عن كتاباتهم حول الجزائر والأمير عبد القادر، لأنهم اعتمدوا كما تقول على مراجع أجنبية مغرضة وتقارير يهودية كاذبة أو مؤلفات مجهولة وبنوا أحكامهم على أساسها. ومن الكتب الخافلة بالإفتراءات والتأويلات الخاطئة: كتاب هنري تشرشل الذي أهداه إلى نابليون الثالث «NAPOLEON III» ومراسلات دوماس «DOMAS» وكتاب بول آزان «LEON AZONE» وليون روش «LEON ROCHES» وأميريت «EMERIT» ... إلخ.

الطول والقصر، ومدركة لإشارات الفارس من هجمة أو كره، أو فر، لا تكون فرسا كاملا، والإنسان امتاز بالعقل والادراك معا» (7).

ويختلف الأمير عبد القادر مع الفلاسفة في عدد مراتب العقل، فبينما يرى هؤلاء أن مراتب العقل تنقسم إلى عشرة أقسام دون أن يعتمدوا على دليل أو برهان واضح، يرى هو: أن العقل أربع مراتب وهي:

- أولا: مرتبة الفائز بالكمال العقلي المهيأ لمعرفة الأشياء بطاقات غير عادية.

- ثانيا: مرتبة العقول: التي لم ترسم فيها المطالب ولا أضدادها، ولكنها لا تنكر الأسباب ولا المسببات، قابلة للاعتراف بمفهوم التكليف، إذ لو لم يكن هناك تكليف لما كان جزاء أو عقاب، أو السعي لطلب الرزق، والعمل الصالح، ولسادت الفوضى في المجتمعات الإنسانية.

- ثالثا: مرتبة العقول الراضية: وهي ما خفي عنها رؤيته، بمعنى أنها لا تؤمن إلا إذا رأت الصانع والمصنوع معا، وشاهدت العلة والمعلول. ولا ترى ضرورة لوجود الأسباب والمسببات، ولا ترى ضرورة عقلية توجب أن تكون النار محرقة، وهي من أنكرت نفسها وعقلها والعالم كله، فقالت: ليس في أذهاننا سوى مدركات حسية آنية وجوهر الأشياء لا وجود له.

- رابعا: مرتبة العقول الملهممة: كالموسيقين والشعراء أيضا، التي هيأها خالق هذا الكون أيضا لتلقي الوحي كالأنبياء المرسلين والإلهام الإلهي، وطريقهم هو الطريق الأمثل لمعرفة الله سبحانه وتعالى.

لقد برهن الأمير في هذه المقدمة على وجود الله بالتركيبة العضوية للإنسان وتوازنها ومدى

المحققة وكتاب المواقف

وقفت الأميرة بديعة موقفاً متميزاً من كتاب المواقف الذي نسب إلى الأمير عبد القادر واستحضرت كل الوسائل والأدوات للتحقيق من هذه النسبة إلى جدّها المفكر أو إلى شخص آخر، وباستخدام المقارنة بين النسخ والخط والتواريخ والأسماء المدونة على الهامش وبالأسلوب المتبع في صياغة الكتاب استطاعت أن تبطل الاعتقاد السائد بأن هذا المصنف هو من عصارة فكر الأمير عبد القادر.

وقد اعتمدت في ذلك أيضاً على المقارنة بين أسلوب الأمير المعروف والمؤكد وأسلوب هذا الكتاب وفصلت بينهما بما يتميز به الأمير من صفاء الذهن ووضوح الفكرة وسلاسة الأسلوب «فكر الأمير واضح المعالم، صادق وصريح نابع من جذور كينونته الإيمانية، والتصوف الذي وصفوه به، لم يكن عنده طريقياً أو كلمة عامة مصطلح عليها، وإنما أعمالاً وصلاً وتقى، وتمسكاً بالقرآن والسنة وإجماع صحابة رسول ﷺ والعبادات المفروضة حتى الرمح الأخير من حياته».

يقع كتاب المواقف الذي حققته الكاتبة في ألف وأربع وستين (1064) صفحة من الحجم المتوسط، وهو في ثلاثة أجزاء وغلافه من الكرتون العادي لا يحمل كتابة على الوجه الخارجي، كتب على الصفحة الأولى عنوان الكتاب (المواقف) وتحتة للسيد عبد القادر الجزائري رضي الله عنه ونفعنا به، ثم كتبت أسفله أبيات شعرية للإمام الخليل بن أحمد:

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني
أو كنت أجهل ما تقول عذلتك
لكن جهلت مقالتي فعذلتني

وعلمت أنك جاهل فعذرتك

وبعد هذه الأبيات كتب: قد طبع هذا الكتاب الوحيد من نوعه المفيد في مجموعه على نفقة صاحبة العصمة خاتم شقيقة أحمد عزت باشا حرم النبيل محمود باشا الأرناؤوطي تنفيذاً لوصيته وإحياء لعاطر ذكره بإهدائه إلى المعاهد الدينية الإسلامية وتاريخ طباعته 1229 هـ.

وتذكر المحققة: أن اسم المؤلف لم يكتب على شكل مثلث كما جرت العادة في ذلك العصر، ولم يذكر اسم الأمير عبد القادر كمؤلف، وإنما أضيف حرف اللام لاسمه فقط، وتعتقد الكاتبة أن النسخ الثلاث للسيد عبد الله الكزبري، كما جاء في الختم المطبوع على النسخ الثلاث في المكتبة الظاهرية.

وتشير الكاتبة إلى أنه قد جاء في الصفحة الأخيرة من الجزء الثاني: «بقلم إلى ربه القدير فراج بخيت السيد وانتهأؤه في يوم السبت 27 جمادي أول سنة 1328 هـ».

وقد كتب على يسار الصفحة الأخيرة من الجزء الثالث: «قد تم مقابلة هذا الجزء على أصله على قدر الامكان في يوم الثلاثاء الموافق أول شهر صفر الخير لسنة 1329 هـ الموافق 31 يناير سنة 1911 م، ونقل من نسخة بخط الشيخ عبد الرزاق البيطار».

وتعلق الكاتبة على كل هذه الملاحظات بطرح جملة من التساؤلات منها: ماهي صفة الأصل؟ وهل اعتبرت نسخة البيطار المحفوظة

بأربعين عاما، ولم يذكر أحد أنه أوصى بطباعة كتاب أو أنه ترك مخطوطا، وإنما الذي أوصى بطبعته هو محمود باشا الأرنؤوطي وليس الأمير عبد القادر.

والحق أن نسخة كتاب "المواقف" الموجودة في المكتبة الوطنية الجزائرية لا تحمل أية زيادة مما ذكرته المحققة في مصنفها نقلا عن النسخة الموجودة في المكتبة الظاهرية بدمشق، بل فإن النسخة الجزائرية تحمل اسم المؤلف على شكل مثلث وهو ما تفتقده النسخة الدمشقية حسب تحقيق الأميرة.

وفي اعتقادنا نحن أنه على مؤسسة الأمير عبد القادر بالجزائر اليوم أن تفتح تحقيقا واسع النطاق للتأكد من نسبة هذا المصنف إلى المفكر الجزائري في القرن التاسع عشر أو نفي ذلك عنه إذا رأيت أن هذا العمل العلمي الذي قامت به المحققة يدين بعض مقدسات المؤسسة ومعتقداتها الفكرية.

ولاشك أن هذا الكتاب قد فسخ المجال ولأول مرة أمام الباحثين والمحققين الذين يريدون أن يتأكدوا من هذا الأمر، لأن الأميرة بديعة قد طرحت المسألة بكل علمية ومنهجية وبجرأة الباحثة الواثقة من قراءتها ووثائقها المعتمدة في هذا التحقيق.

والخلاصة أن هذا المصنف هو ثمرة علمية جديدة من الثمار المتميزة التي ما فتئت المحققة "الأميرة بديعة الحسني الجزائري" تقدمها للمكتبة العربية وهو علاوة على ما تضمنه من تحقيق لكتابين هامين من كتب الأمير، فإنه حافل بالآراء والمواقف التي تميزت بها الكاتبة في السنوات الأخيرة لرد الشبهات وإبطال التأويلات وتفنيد

بيده هي الأصل؟ أم النسخة التي جاءت بخط فراج بخيت السيد هي الأصل؟ وهي تشكك في المعلومات التي دونها الشيخ عبد الرزاق البيطار، فهل سمعها من الأمير؟ وأين؟ أم سمعها من أحد الذين كانوا يستمعون إليه؟ وهل هو على يقين من أمانة هذا الشخص ومن سلامة عقيدته لدينه؟

وتنسب المحققة الكتاب للبيطار من خلال الجملة القائلة: «وكان على هامش الأصل تصحيح بخط المؤلف».

وتنفي المحققة نسبة كتاب المواقف للأمير بما وجدته مكتوبا في المخطوط "المؤلف مجهول" وصاحب الخط مجهول والتاريخ مجهول.

وعلى النسخة الأخرى يوجد تاريخ 1307 هـ نوع الخط فارسي، صاحب الخط مجهول، ويفهم من ذلك أنها خطت بعد وفاة الأمير بسبع سنوات، ومع كل هذه الأدلة اعتبر كتاب "المواقف" في الجزائر - كما تقول الكاتبة - النتاج الفكري الأهم للأمير عبد القادر: «ولم ينتبه أحد من المؤرخين أو العلماء إلى التحريف والتأويل الخطير الذي ملأ صفحاته وقدم إلى المكتبات في الجزائر بشكل مخطوط زعم أنه بخط الأمير نتيجة لهذا الإهمال والتهاون بكشف حقيقة كتاب المواقف الذي ينسب إلى هذا المجاهد، وترجم إلى عدد من اللغات وهو يحمل هذا التحريف الخطير ومن زيادة وحذف وتحرير واقتباس، وقبله الجميع على أساس أنه فكر الأمير عبد القادر جملة وتفصيلا»⁽⁹⁾.

وتعلق المحققة قائلة: أنه ليس غريبا أن ينسب كتاب "المواقف" للأمير عبد القادر بعد وفاته بثلاثين عاما تقريبا والجزء الثالث منه بعد وفاته

ثانياً: مسألة الأمير عبد القادر ووقف الحرب مع الفرنسيين؛

حاولت الكاتبة في هذا المضمار أن تبذل الضباب الكثيف الذي خيم على مسألة وقف الحرب مع الفرنسيين سنة 1847 م، والآراء المغرضة التي طعنت في قرار البطل بوقف الحرب وهجرته إلى المشرق.

حقاً أن المحققة قد استحضرت للدفاع عن هذا الموضوع كل الأسلحة الممكنة لاسكات الخصوم وهو أمر جدير بالأهمية، غير أن هذا الأمر لا يستدعي في اعتقادنا كل المبررات والشواهد التاريخية التي جاءت بها الكاتبة، لأن قرار الأمير عبد القادر لم يكن قرار استسلام للعدو ولا خيانة للوطن كما تدّعي ذلك أقلام الدعاية المغرضة والعقول المشوهة وإنما المسألة لا تعدو أن تكون سوى كبوة جواد كما يقول المثال العربي، فالأمير استطاع في زمن قياسي أن يجمع وراءه الجماهير الشعبية في ثلثي بلاد الجزائر على اتساعها طولاً وعرضاً، وأن يكون جيشاً مدرباً ومسلحاً بأسلحة عصرية متطورة وأن يؤسس أول دولة جزائرية حديثة، وأن يشن حرباً عواناً على المستعمرين الغزاة، غير أن استمرار الحرب خمسة عشر عاماً بعد المبايعة وتفوق العدو عليه عدداً وعدة من الشمال والشرق، ووحشية الصحراء من الجنوب، وسيوف الأشراف من الغرب، أجبرته على إيقاف الحرب وحقن دماء مواطنيه الذين أصبحوا مشتبكين وملاحقين من قبل القوات الفرنسية في كل مكان وهم في وضعية اقتصادية واجتماعية وعسكرية يرثى لها، جعلته يختار طريق السلم والهجرة بدلاً من طريق المغامرة

الآراء المغرضة التي نسجتها المدرسة الكولونيالية في الجزائر بهدف تشويه سمعة الزعامات الوطنية وتزييف التاريخ الجزائري.

ومن أهم الآراء التي وردت في هذا الكتاب وزعزعت الكثير من النظريات المتوارثة:

أولاً: مسألة التصوف والأمير عبد القادر؛

لقد أكدت المحققة في هذا الموضوع بطلان الآراء القائلة: أن الأمير عبد القادر بطل المقاومة الجزائرية في القرن التاسع، كان زعيماً للطريقة الصوفية القادرية، وأن والده الشيخ "محي الدين" كان يجبل ويحترم لاعتناقه مذهب الطريقة القادرية التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني في العراق.

وقدمت جملة من الأدلة والبراهين التاريخية والثقافية والاجتماعية والعسكرية التي تنفي الصبغة الطرقية على بطل المقاومة.

ونحن إذا كنا نؤيدها فيما ذهبت إليه من أن الأمير ليس ابن زاوية طرقية، وإنما ابن مدرسة وطنية فكرية تلقن طلابها علوم الدين واللغة والحساب والجغرافيا والتاريخ، فإننا لا نرى في انتمائه إلى طريقة صوفية زهدية وثقافية كالطريقة القادرية شيئاً ينقص من قيمته كزعيم وطني ورجل دولة قاد الجزائريين ضد أعتى قوة استعمارية برية في ذلك الوقت لمدة سبعة عشر عاماً لأن هذه الطريقة كانت في مقدمة الطرق الثائرة التي أخذت منذ الوهلة الأولى تُتأفح عن الوطن ووحدته الترابية.

الوحيدة في هذا البهو، وكأن الأمير كان وحده في المحفل الماسوني بالاسكندرية، بينما هي مجرد صورة ابتدعتها ريشة فنان "دولاكروا" للأمير تكريماً له على ما أظهره من حس إنساني عالي، سواء إزاء أسرى الحرب في مقاومته مع الفرنسيين بالجزائر أو في إنقاذه للمسيحيين من الموت في الحرب الطائفية ببلاد الشام سنة 1860 م.

أما جرجي زيدان المعروف في كتاباته بالظعن في التاريخ الإسلامي فيقول: «أثناء عودة الأمير عبد القادر الجزائري من الحجاز بعد أدائه فريضة الحج وخلوته الصوفية الشهيرة في مكة والمدينة سنة 1864 م مر بالاسكندرية انتظم في سلك الجمعية الماسونية في 18 حزيران من تلك السنة» ومن المفارقات الغريبة أن يأتي "الأمير عبد القادر" كما يقول جرجي زيدان من أداء فريضة الحج وفي طريقه تستهويه مبادئ الجمعية الماسونية في الاسكندرية فينخرط فيها. أعتقد أن هذه المفارقة الغريبة لا يقبلها إنسان عاقل ومؤرخ محقق أو حتى أديب ملفق، وعلى أية حال فإن جرجي زيدان معروف لدى الأوساط الثقافية بأكاذيبه وافتراءاته ودجله عندما يكتب عن التاريخ العربي الإسلامي وتفسيره تفسيراً جنسياً فرويدياً لإثارة غرائز الشباب وتحريك شهوات المراهقين مشوهاً بذلك الكثير من أبطال الإسلام وبطلانه مثل: رواية فتاة غسان ورواية عذراء قريش، ورواية العباسة أخت الرشيد⁽¹⁰⁾.

أما الكاتب الثالث الذي كان أول من أسدل ضللاً من الشك حول شخصية الأمير عبد القادر فهو المؤرخ الإنجليزي هنري تشرشل، فقد كتب في الفصل الرابع والعشرين عن سيرة الأمير عبد القادر ما يأتي: «لقد نجح عبد القادر

والتضحية غير المجدية بقواته التي تَشَتَّتْ في الفيافي والقفار والسهول والجبال.

إن الأمير رغم خطورة الوضع لم يستسلم للفرنسيين وإنما وقع معهم معاهدة تقضي بفسح المجال أمامه إلى الهجرة نحو المشرق العربي وصيانة البلاد الجزائرية ومقدساتها كما سلف الذكر، ولكن الفرنسيين غدروا به ولم يلتزموا بمواد المعاهدة ونقلوه إلى حصن أمبواز ليقضي فيه مع عائلته وأمه التي تجاوزت الثمانين من عمرها، خمس سنوات بعيداً عن الأضواء وعن مواطنيه الذين كانوا في أمس الحاجة إلى قائد عظيم ومحنك في معركتهم المستمرة ضد الغزاة المحتلين.

ثالثاً مسألة الأمير والماسونية:

ما زالت مسألة اتهام الأمير بالعضوية في أحد المحافل الماسونية مادة خصبة لأقلام الدعاية حتى كتابة هذا المقال. فقد طالعنا جريدة الخبر الأسبوعية الجزائرية في عددها الثالث والثمانين الصادر يوم 10 تشرين الأول/أكتوبر سنة 2000 بحوار مع الأديب الجزائري "رشيد بوجدره" تحت عنوان: "كاتب ياسين غير مثقف والأمير عبد القادر ماسوني"، مما جاء فيه رداً عن سؤال الخبر هل تؤكدون دخول الأمير الماسونية؟

أجاب بوجدره: «أؤكد تماماً فعندما تدخل إلى المقر الاجتماعي للماسونية في باريس تجد في بهو مدخله لوحة الأمير عبد القادر وهي مرسومة من طرف دولاكروا وهي اللوحة الوحيدة المعلقة وتوجد لغاية اليوم».

إن هذه الصورة التي يستدل بها بوجدره على ماسونية الأمير، حسب رأيه كأنها بالنسبة إليه بطاقة انخراط في هذه الجمعية مع أنها الصورة

أما الكاتب الرابع الذي أدلى بدلوه في هذه المسألة، أيضا ولكن من وجهها الحقيقي على ما يبدو، فهو الأمير سعيد الجزائري حفيد الأمير عبد القادر فقد أورد نصا فند فيه الاتهامات السابقة التي ألصقت بالزعيم الجزائري مما جاء فيه:

«بينما كان الأمير عبد القادر عائدا من سوريا عن طريق الاسكندرية اغتنمت الجمعية الماسونية، فرصة وجوده في ذلك القطر فأوفدت إليه هيئة من أعضائها لتعرض عليه المبادئ الماسونية، وعندما ذكر الوفد المشار إليه فضائل الماسونية وخدمتها في الإنسانية شكرها الأمير عبد القادر على عملها الذي ادعته، فاتخذ بعض المتتمين للجمعية ذاك الاجتماع ذريعة حسنة لنسبة دخول الأمير في جمعيتهم»⁽¹²⁾.

وقد علق صاحب النص على هذه الحادثة فقال: «أولا من العلوم أن للجمعية الماسونية نظاما معينا كما هو الحال لباقي الجمعيات ومن جملة مواد نظام الجمعية الماسونية أنه لا بد لكل شخص يريد الدخول في هذه الجمعية أن يطلب الإنخراط بها بموجب استدعاء، فإذا أذن له بذلك واستحسنّت الجمعية إدخاله كلفته بوضع إمضائه في سجل أعمالها وعليه أن يكتب أنه دخل بإرادته واختياره... وأن وجود مثل هذه الوثائق المادية لأعظم دليل ولأقوى برهان بيد كل من يريد أن يثبت انخراطه في سلكها وعلى كل من يدعي انضمام الأمير بها أن يبرز هذه الوثائق الراهنة مطبوعة منسوخة على الحجر وما من أحد يجهل خط الأمير وإمضائه وثانيهما أن الأمير اشتهر بالتقوى وصلابة الدين لا يخالف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فكيف يعقل أن يدخل في جمعية سرية لا يعلم حقيقتها إلا

في تحقيق أعلى المراتب الدينية التي تعتبر أساسية وجبلية، بعد عمل شاق وإنكار طويل للذات، ومن جهة أخرى أصبح يحمل شعار جمعية تقوم على مبدأ الأخوة العالمية أن الجمعيات الماسونية في الاسكندرية، قد سارعت للترحيب بالعضو الجديد الشهير، فقد دعي المحفل الماسوني المعروف بمحفل الأهرام للاجتماع خصيصا لهذه المناسبة عشية 18 حزيران 1864 وأدخل عبد القادر في هذا النظام الصوفي الغامض وقد أضيفت إلى ميزة "مجاور النبي" ميزة "ماسوني حر مقبول" وهي العبارة الصوفية المستعملة في هذا المقام»⁽¹¹⁾.

ويبدو أن تشرشل هو مصدر جرجي زيدان فيما ذهب إليه حول ما يشاع عن ماسونية الأمير، ونحن نعلم أن الفصل الرابع والعشرين من كتاب حياة الأمير الذي ورد في هذا النص لم يمله صاحب السيرة نفسه على المؤرخ الانجليزي لأن تشرشل أنهى تدوينه لاملأات الأمير في ربيع 1860 وغادر دمشق في العام نفسه كما ورد ذلك في مقدمة المؤلف ص 37 من الترجمة العربية التي قام بها الدكتور أبو القاسم سعد الله وإنما حصل على معلومات هذا الفصل من شهود عيان كما يذكر هو نفسه. وبالتالي فإن مصدره غير مؤكد لأن تدوين معلوماته عن دخول الأمير المحفل الماسوني كما يشاع كانت بعد أربع سنوات من إنهاء الحوار مع البطل الجزائري.

ومن ثمة فقد تكون هذه طعنة أخرى تضاف إلى الطعنات الأخريات التي رمي بها الأمير بهدف تشويه سمعته كرائد للمقاومة الوطنية في الجزائر.

والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في الهند سنة 1882 م وهي جمعية في غاية السرية والتعقيد تشترط على المنخرطين في سلكها أداء القسم على الإخلاص والوفاء لمبادئها والالتزام بتنفيذ أوامر قادتها وهي أول صرخة في العالم الإسلامي كله سمعها الغرب كما سمعها الشرق ضد الاستعمار والاستبداد في الوطن العربي.

رابعاً: مسألة الأمير وكتاب "المواقف"

وقفت المحققة من هذه المسألة موقفاً علمياً دقيقاً أقلت به كثيراً من المفاهيم والاعتقادات السائدة التي ما فتئت تنسب كتاب "المواقف" لجدها البطل الأمير عبد القادر، وتنفي نفيها قاطعاً أن يكون هذا الكتاب من تأليفه بالإعتماد على الخط والتواريخ والأسماء التي وجدت على حاشيته، فهي بذلك تضع من كتبوا عن هذا المصنف ووظفوه في دائرة فكر الأمير، في موقف حرج، لأنهم سيدركون بعد هذا التحقيق أنهم كانوا يكتبون ويدافعون عن عمل فكري لم يتحققوا منه لاسيما مؤسسة الأمير عبد القادر في الجزائر التي طالما نبهت المحققة مسؤوليها إلى أخذ الحيلة والحذر مما يكتبونه وينشرونه حول موضوع هذا الكتاب.

وعلى أية حال فإن كتاب "المواقف" الذي يقع في ثلاثة أجزاء هو عمل فكري تصوفي فقهي فلسفي يصنف صاحبه في مصاف المفكرين العرب أمثال: الحلاج وابن العربي وغيرهما من الفقهاء وعلماء التصوف، ونحن لا نرى أي ضرر في نسبته إلى الأمير عبد القادر لأن ما يراه عامة الناس مروقاً عن الدين يعتبره المتصوفة عبادة وزلفى هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الأمير

من انخرط بين جماعتها فالشرع لا يسمح للمسلم بأن يدخل بها قبل معرفة حقائقها»⁽¹³⁾.

والحق أن كل هذه الأحداث والنصوص التي أتينا عليها حتى الآن وقعت كلها تقريباً قبل تأليف كتاب "تحفة الزائر". وهو موسوعة قيمة تتبعت سيرة الأمير عبد القادر منذ ولادته حتى وفاته ولم تجد شاردة ولا واردة إلا ودونتها.

ومع ذلك فإنها لم تذكر هذه المسألة على الإطلاق فكيف يأتي كتاب لا تتوفر فيه صفات المؤرخين المحققين الثقة، ليلفقا تهما باطلة لرجل اشتهر بالوطنية والشجاعة والفروسية والورع والتقوى.

أما المحققة فقد شرحت هذه المسألة شرحاً وافياً في هذا الكتاب، حين تحدثت عن زيارة وفد الجمعية الماسونية للأمير عندما حضر حفل تدشين قناة السويس مع الملوك والأباطرة سنة 1869 م بالاسكندرية.

أما نحن فنرى أن الجمعيات الماسونية، قد أغرت الكثير من الزعماء والمثقفين في بداية النهضة العربية خلال القرن التاسع عشر. فاستحسنوا مبادئها وأهدافها الظاهرة، لأنهم كانوا يتطلعون إلى الحرية والاعتناق من ربة الجهل والاستبداد والاستعمار في بلادهم فانتظموا في بعض محافلها أول الأمر، ولكنهم سرعان ما انسحبوا منها بعد أن أدركوا أهدافها الحقيقية ولم يوقعوا حتى على وثائقها الرسمية أمثال: جمال الدين الأفغاني أثناء إقامته بمصر سنة (1871 - 1878) م.

أما الأمير عبد القادر فهو على العكس من ذلك، فقد انتظم في جمعية "العروة الوثقى" السرية التي أسسها السيد جمال الدين الأفغاني

أما وجود بعض الفقرات في كتاب المواقف التي تنحرف بصاحبها عن جادة الحق إلى زاوية الشرك فهذه مسألة نسبية يترك للقدير تقديرها.

عبد القادر وإن كان قد بدأ حياته زعيما وطنيا مارس السياسة العسكرية والأدب حوالي عقدين من الزمن، فإنه قد انتهى في همره إلى الزهد والتصوف والتأمل في ملكوت الله والاجتهاد في المراتب والروحيات على حد سواء.

الهوامش

- (1) - فريد جحا: عبد القادر متصوفا، مجلة المعرفة، العدد 185، وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، تموز، 1977، ص125.
- (2) - Gouvernement Général d'algerie, services des liaisons Nord Africains, confréries religieuses en algerie 1951, archives historiques la wilaya de Batna N°1452, p3
- (*) وهي:
 - أ - ينتقل الأمير مع جميع عائلته إلى عكا أو الاسكندرية.
 - ب - المحافظة على حقوق البلاد ومقدساتها مع ضمان أملاك الأمير وإرجاع جميع ما سلب منها، وعدم تعرض السلطة الفرنسية لمن يريد الهجرة أو السفر مع الامير من جماعة الضباط والجند.
 - ج - تتعهد الحكومة الفرنسية بتأمين كل من يتخلف أو يبقى في الوطن الجزائري من آل الأمير وجميع من ينتمي إلى أسرته.
- كان إمضاء عقد الصلح يوم 18 محرم 1264هـ/23 ديسمبر 1847 م في مكان يقع قرب ضريح "سيدي ابراهيم" الذي وقعت فيه أعظم المعارك بين الأمير والفرنسيين. عبد الرحمن بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج4، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص233.
- (3) - الأميرة بديعة الحسني الجزائري: فكر الأمير عبد القادر الجزائري حقائق ووثائق وكتابه وشائج الكتائب والمقراض الحاد، ط1، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق - سوريا: 1421هـ، 2000م، ص52.
- (4) - المرجع نفسه، ص51.
- (5) - المرجع نفسه، ص51.
- (6) - المرجع نفسه، ص56.
- (7) - تذكر دار الحياة للطباعة والنشر في بيروت، محرر الدار محمد بن عبد الله الخالدي المغربي، بأنها عثرت على المخطوط المذكور وطبعته عام 1966، تحت رقم 9914، عدد صفحاته 240 صفحة، من الحجم الصغير، وجد منها نسختين إحداهما في مكتبة الأسد تحت رقم 17533 تاريخ الإيداع 1976، والأخرى مختصرة بلغة أسهل وبأسلوب أفضل قليلا ولكنها مبتورة في نهايتها، غلفت فنيا وعلى غلافها الأسود صورة للأمير مذهبة بلباسه الجزائري وهي موجودة الآن في المتحف الوطني في الجزائر.
- (8) - المحققة، ص82.
- (9) - المرجع نفسه، ص166.
- (10) - بلقاسم مجاهدي: "عندما يتهم المبدع رشيد بوجدره الأمير عبد القادر بالماسونية"، جريدة اليوم السنة الثانية العدد 575، الاثنين 18 ديسمبر 2000، ص11.
- (11) - شارل هنري تشرشل: "حياة الأمير عبد القادر"، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس 1994، ص294.
- (12) - المكان نفسه.
- (13) - المكان نفسه.